رسائل الفكرة الإسلامية

٢

الرسول أستاذ الحياة

محمد عبد الله السمان

الثمن ٣ قروش

الطبعة الثالثة { ربيع الاول ١٣٧٣ هـ
ديسمبر ١٩٥٣ م

الإهداء

إلى كل مسلم فى مشارق
الأرض ومغاربها يعتز كل
الاعتزاز بشخصيـة محمد
صلوات الله وسلامه عليه ...

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة الطبعة الثالثة

إن فى أحاديث الرسول ثروة ضخمة من الثقافة والتربية بجميع ألوانها ، ولكن الكثيرين من المسلمين لا يحاولون الانتفاع بهذه الثروة الضخمة القيمة ، إما منصرفين عنها كلية ، وإما آخذين منها مالا يمت الى الحياة الصحيحة بصلة ، وإما محاولين الركون إلى الأحاديث الملتوية المخترعة التى تشبع رغبات السذج البسطاء .. والذى نريده، إن يتأكد الكاتب أو المطلع أو المحاضر من صحة أحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم أولا ، ثم ليحاول أن يقدم للمسلمين منها الزاد المحتاجين اليه ..

كان الرسول قائدا وسياسيا ، وداعيا ومربيا ، وضع عليه السلام أصول القيادة ، والسياسة ، والدعوة ، والتربية ، ورسم فى كل هذه مناهج تصلح لتوجيه الامة الأسلامية إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها ـ فلنحاول ـ أن نفيد من هذه المناهج ، وفيها الخير كل الخير ..

محمد عبد الله السمان

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة الطبعة الاولى

ما تلوت حديثاً من أحاديث الرسول الاعظم — صلوات الله وسلامه عليه — إلا وجدت فيه فلسفة عميقة . وعبقرية فذة ، ولوناً من ألوان التربية الرفيعة العالية .

وما كنت لأدع حديثاً واحداً أقرأه ، أو أسمعه ، يمر بي قبل أن أتناوله بالبحث والتنقيب ، لأقف على سر البلاغة فيه وموضع العظة والعبرة منه .

ولست أدرى لم نذهب بعيداً ، إذا أردنا دراسة الحياة ، ولنا في سيرة محمد وعبقريته وفلسفته ، ما يجعلنا قادة الدنيا وأساطين الحياة وأساتذتها ؟ .

إن أحاديث الرسول تعتبر أعظم مدرسة للحياة ، وأعظم مدرسة للتربية الرفيعة والتوجيه السليم ، وأعتقد أن السر في انصراف المسلمين عن هذه المدرسة ، إنما يرجع إلى المتصدين لعرض أحاديث الرسول ، فهم في الغالب لم يتقنوا إلا عرض الأحاديث التى تتصل بالصلاة والزكاة والصيام والحج ، حتى أصبحوا متخصصين فى هذا النوع ، وأتقنوا مع هذا عرض لون آخر من الأحاديث ، يلقون

به فى ميدان الجدل والمناقشة والمهاترة ، أما الأحاديث التى تتصل بشؤون الدنيا، وقيم الحياة الصحيحة، فبينهم وبينها عداء مستأصل وجفاء مستحكم . . !

كان محمد أستاذاً للحياة . . !

تستطيع أن تقولها وأنت مرفوع الرأس عالى الجبهة .

تستطيع أن تقول هذا مراراً وتكراراً ، وتستطيع أن تعلن هذا على رؤوس العباقرة والفلاسفة من الشرق والغرب ، فلم يكن محمد إنساناً عادياً فحسب ، ولكنه كان صاحب رسالة خالدة غير متقيدة بزمان أو مكان أو جنس ، جاءت لتقود العالم حتى يقطع مراحل الحياة سعيداً فى غير ما قلق أو تنغيص، وشخصية كهذه لها قدرها وخطرها ليس بكثير عليها أن تكون أستاذاً للحياة .

وعباقرة الغرب النزهاء لم يفتهم أن يقروا بهذا ويعلنوه ، فها هو ذا الفيلسوف الروسى « تولستوى » يقول :

« ومما لا ريب فيه أن النبي محمداً من عظام الرجال المصلحين الذين خدموا الهيئة الأجتماعية خدمة جليلة، ويكفيه فخراً أنه هدى أمة برمتها إلى نور الحق ، وجعلها تجنح للسكينة والسلام ، وفتح لها طريق الرقى والمدنية ، وهو عمل عظيم لا يقوم به إلا شخص أوتى قوة — ورجل مثل هذا جدير بالاحترام والاكرام » .

القاهرة — محمد عبد الله السمان

مدرسة الحياة المحمدية

كانت لمحمد — صلوات الله وسلامه عليه — أكبر مدرسة للحياة ، وما زالت هـذه المدرسة قائمة إلى اليوم ، وستظل قائمة إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، بتعاليمه وتوجيهاته . . والذين يعتقدون أن محمداً انصرف برسالته عن الحياة إلى الآخرة ، يضعون من قدره ويحطون من شأن رسالته، لأن رسالته لم تأت إلا لتهيء للبشرية حياة ناجحة سعيدة . . ، ولم تكن إلا مدرسة للحياة الصحيحة التى تنعم الانسانية فى ظلالها .

ولقد تخرج من مدرسة الحياة المحمدية الأولى الألوف المؤلفة من المسلمين الذين ملأوا الدنيا نورا وعلما ومدنية ورقيا ، ولو انتسب المسلمون إليها اليوم لكانوا فى حالة غير حالتهم هذه ، ولأصبحوا فى المكانة اللائقة بهم ، كأمة أراد الله لهـا العزة إلى ان تقع السماء على الأرض ، ولكنهم انصرفوا عنها ، فضل سعيهم فى الحياة الدنيا ، وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا .

إن الذين يسلكون طريق الحياة الصحيحة الناجحة، ينتفعون من حياتهم قبل ان يفاجئهم الموت، ومن صحتهم قبل أن يفاجئهم المرض ، ومن فراغهم قبل أن يمتص الشغل أوقاتهم ، ومن شبابهم قبل أن يزورهم الهرم ، ومن غناهم قبل أن يحالفهم الفقر ، فانظر إلى محمد يعظ رجلا فى هذا المعنى فيقول له :

«اغتنم خمسا قبل خمس: حياتك قبل موتك، وصحتك قبل سقمك، وفراغك قبل شغلك، وشبابك قبل هرمك، وغناك قبل فقرك».

والحياة الصحيحة تحتم على العاقل أن يسعى فى الأرض اذا ضاق رزقه، وان يعالج الأمور إذا استعصت عليه، وألا يستسلم للدعة إذا تزاحمت عليه الخطوب — ولقد رأى محمداً أبا إمامة متربعا فى المسجد فى غير وقت الصلاة، مهموما مغموما، فسأله عما أجلسه فى المسجد وليس الوقت وقت الصلاة، فأجابه: هموم لزمتنى، وديون كثيرة يارسول الله..! فأراد الرسول أن يوجهه إلى الحياة الصحيحة دون أن يجرح شعوره أو يمس إحساسه، حتى ينفض عن نفسه غبار الدعة والتواكل، فقال له: ألا أعلمك كلمات إذا قلتهن فى صباحك ومسائك أذهب الله عنك همك، وقضى دينك؟ قل: اللهم إنى أعوذ بك من الهم والحزن، وأعوذ بك من العجز والكسل، وأعوذ بك من الجبن والبخل، وأعوذ بك من غلبة الدين وقهر الرجال..

والحياة الصحيحة تحتم على العاقل أن يكون حذرا يقظا، لا يستغفل ولا يسخر منه — ولا يضحك عليه — وقد هجا أبو عزة الشاعر محمدا والمسلمين، فلما وقع فى قبضة الرسول يوم بدر سأله العفو على ألا يعود إلا هجائه مرة أخرى، ولكنه لم يف بوعده، وواصل هجاء محمد والمسلمين، فأوقعه حظه السيء مرة أخرى

فى قبضة الرسول ، ولما حاول التماس العفو لم يجبه الرسول إليه وأمر بقتله وهو يقول :

« ألا لا يلدغ المؤمن من جحر مرتين » .

والحياة الصحيحة تحتم على العاقل ألا يكون متواكلا يلتمس أهون الأسباب ليظل فى كسله وتواكله، ويريد أن يبلغ غايته وهو قعيد فى عقر داره، ويحقق هدفه بغير عمل، ويريد أن تستجيب الدنيا لآماله ومطامعه بدون سعى، فانظر إلى محمد فى هذا المعنى يقول :

« العاجز من أتبع نفسه هواها ، وتمنى على الله الأمانى » .

« إذا دعا أحدكم فليعزم المسألة ، ولا يقولن : اللهم إن شئت فأعطنى ، فإنه لا مستكره له » .

والحياة الصحيحة تتطلب التوسط فى الأمور، والاقتصاد فى المعيشة كما تتطلب الضمير الحى فى المرء وفى هذه المعانى يقول الرسول :

« خير الأمور أوساطها »

« الاقتصاد نصف المعيشة » .

« إذا اراد الله بعبد خيرا جعل له واعظا من قلبه » .

والحياة الصحيحة لا تتطلب تضياع الوقت فى الجدل ، ولا التعقيد فى الأمور ، ولا التهرب من المسئوليات :

« ما ضل قوم بعد هدى إلا أوتوا الجدل » .

« يسروا ولا تعسروا ، وبشروا ولا تنفروا » .

« كفى بالمرء إثما أن يضيع من يقوت » .

محمد المربّى

كان محمد مربياً من الطراز الأول ، فقد كانت التربية هى مهمته الأولى ، ودعامة رسالته فى الحياة .

ولم تكن طريقة محمد فى التربية مجرد نظريات تلقن لتحفظ ، ولا مجرد أساليب منمقة تزخرف لتخدع ، وإنما كانت دروسا عملية ، ونظريات فلسفية ، وأساليب حية قائمة على المنطق السليم .

وقوة المربى إنما تقاس بآثاره ونتائجه فى التربية ، وتربية محمد بلغت أسمى درجات القوة ، فقد استطاع أن يخلق من أجلاف العرب ، ذوى العقول المتبلدة ، والقلوب المتحجرة ، قادة عظاما ، وساسة دهاة ، وأساطين فى العلم والأدب والفن .

ظل محمد — المربى — ثلاثة وعشرين عاما كان خلالها نعم المربى لأتباعه وأصحابه ، يهيئهم للحياة الصحيحة الناجحة . ويعدهم جيلا صالحاً للمستقبل ، ولم يكن ليدع كبيرة ولا صغيرة إلا تناولها بطريقته التربوية السليمة ، وكان ينتهز الحوادث والأحداث ، فيستغلها لالقاء دروس فى التربية ينتفع الجمع منها .

أبصر ذات مرة رجلا غنياً جلس بجنبه فقير ، فانقبض عنه ، وجمع ثيابه ، فقال عليه السلام : أخشيت أن يعدو عليك فقره ؟ وكان هذا درساً فى التربية لذاك الغنى المتكبر .

وأبصر ذات يوم أبا مسعود يضرب غلامه بسوطه ، فناداه

بصوت مرتفع : ارفع سوطك أبا مسعود ، فان الله أقدر عليك منك على هذا الغلام ..! فكان درساً في التربية قاسيا لأبى مسعود ، لم يسعه إزاءه إلا أن يعتق غلامه .

وقال سلمان الفارسى ، وصهيب الرومى ، وبلال الحبشى ذات مرة لأبى سفيان : ما أخذت سيوف الله من عنق عدو الله مأخذها .. فقال أبو بكر : تقولون هذا لشيخ قريش وسيدها ؟ فما أن سمع الرسول حتى خاطب أبا بكر قائلا : لعلك أغضبتهم ؟ لئن كنت أغضبتهم لقد أغضبت ربك ..!

هذه دروس فى التربية الرفيعة ، تحمل أعظم المعانى فى التربية وترمى إلى إقرار مبدأ المساواة بين الغنى والفقير ، والقوى والضعيف .

وأعطى بعض الصحابة ابنا له عطية ميزه بها على إخوته ، وأراد أن يشهد الرسول على هذه العطية فقال عليه السلام : أعطيت سائر ولدك مثل هذا ؟ قال : لا ، قال : فاتقوا الله واعدلوا بين أولادكم . فرجع الرجل فرد عطيته .

وسأله سعد بن أبى وقاص فى حجة الوداع ـ وقد ألم به وجع ـ أأتصدق بثلثى مالى ، فانى ذو مال ولا يرثنى إلا ابنة ؟ قال . لا ، قال : فالشطر ؟ قال : لا ، قال : فالثلث ؟ قال : الثلث والثلث كثير ، إنك إن تترك ورثتك أغنياء ، خير لك من أن تتركهم عالة يتكففون الناس ..!

وهذا لون آخر من التربية المحمدية الرفيعة ، فلو أن الصحابى الأول مضى فى تمييز احد ابنائه على الآخرين ، لكان هذا داعيا إلى بذر بذور الاحن والبغضاء والحقد بين الاخوة ...!
ولو أن سعدا رضى الله عنه أمضى فى تصدقه بثلثى ماله ، لكان هذا داعيا إلى قطيعة الرحم ، ولكن محمداً راح بتربيته الرفيعة يحول دون هذا وذاك ، ليقرر معنى العدالة بين الأبناء ، وصلة الرحم التى أوصى الله بها .

ولقد كانت تربية محمد الرفيعة تقوم دائما على المنطق السليم ، وأعظم ألوان التربية ما كان قائما على المنطق السليم .

أتاه غلام شاب ، فقال : يا نبى الله ، أتأذن لى فى الزنا ، فصاح الناس به ، فقال النبى : قربوه . . أدن ، فدنا حتى جلس بين يديه ، فقال له : أتحبه لأمك ؟ فقال : لا . جعلنى الله فداك قال (ص) : كذلك الناس لا يحبونه لأمهاتهم ، أتحبه لابنتك ؟ قال : لا . جعلنى الله فداك ، قال (ص) : كذلك الناس لا يحبونه لبناتهم ؟ وهكذا حتى ذكر الرسول الأخت والعمة والخالة ، والغلام الشاب يقول : لا . جعلنى الله فداك ، والرسول يقول : كذلك الناس لا يحبونه .. ولم يتركه الرسول حتى وضع يده على صدره وقال : اللهم طهر قلبه ، واغفر ذنبه ، وحصن فرجه ، فلم يكن شىء أبغض اليه من الزنا .

محمد السياسي

لم تكن السياسة فى نظر محمد السياسى ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ ضرباً من ضروب الشعوذة والدجل والارتزاق ، ولا لوناً من ألوان الحيلة والتغرير والتضليل ـ ولكنها كانت فى نظره لباقة فى تدبير الأمور حتى تظفر بالنجاح ، وحزما فى تصريفها حتى تتفادى الفشل ، وإخلاصا للغاية التى من أجلها ألقيت على عاتقه مهمة السياسة ، وتحمل تبعاتها .. إذا كانت مقاييس الساسة النجاح ، فقد بلغ محمد ذروته ، وإذا كانت مقاييس الساسة تفادى الفشل ، فلم تصب سياسة محمد بالفشل مرة واحدة ، وإذا كانت مقاييس الساسة الاخلاص فى سبيل الغاية ، فقد ضرب محمد المثل الأعلى للاخلاص فى سبيل غايته .

قد يحلو لبعض الحمقى الأغبياء من المسلمين لفظا لا معنى ، وخيالا لا حقيقة ، كما يحلو للحاقدين المتزمتين من غير المسلمين ، أن يجعلوا محمداً بمعزل عن السياسة ، وأن يعتبروا مهمته لم تكن سوى مهمة دينية روحية ، تجذب البشر إلى ملكوت السموات ، وتسمو بهم عن أرجاس الأرض .. !

وهؤلاء جميعا لا نعنى بترهاتهم ، ولا نقيم لأضاليلهم وزنا ، لأنهم أتفه من أن نعنى بهم أو نقيم لهم وزنا . فاذا كان محمد الذى غير وجه التاريخ ، وأحدث برسالته أكبر انقلاب عرفته البشرية ، وأقام دولة فتية ، وأعد أمة حية ذات منهاج يقوم على أسس الحق

والعدالة – إذا كان محمد هذا فى نظرهم لا يحسب فى عداد الساسة فأجدربنا وأسمى أن نغض الطرف عنهم ، لا تقهقراً ولا تخاذلا ، ولكن احتقاراً واستخفافاً ، فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للاسلام ، ومن يرد أن يضله يجعل صدره ضيقا حرجا كأنما يصعد فى السماء ، كذلك يجعل الله الرجس على الذين لا يؤمنون » .

***

كان محمد سياسيا حازما فى سياسته ، بعيد النظر فى تدبيره الامور ، كان يرتب القيادة للجيش عند خروجه للجهاد ، حتى إذا استشهد القائد تولى من بعده فى الترتيب ، فلا يحدث ارتباك أو اضطراب فى صفوف المجاهدين .

وقبل شروط صلح الحديبية على ما فيها من إجحاف بحقوق المسلمين ، لأن قوة المسلمين لم تكن تمكنهم من الوقوف أمام جهات الأعداء وجها لوجه ، وليشهد العالم على بغى أعدائهم وتعسفهم .

ولم يكد يصل يثرب بعد الهجرة ، حتى أخذ فى موادعة اليهود حتى يتمكن من الاستقرار ، وحتى لا يناضل فى أكثر من ميدان واحد . .

وكان محمد سياسيا يتمتع بدهاء واسع ، والدهاء من ألزم

اللوازم للسياسة ، ولكنه كان دهاء نبيلا سامي المقصد شريف الهدف والغرض .

لقد ترك علياً ليلة هجرته على فراشه لتطمئن أعين المتربصين به ، وبقي بالغار مع صاحبه ثلاثة أيام ، ليضلل من تعقبوا خطواته ، واقتفوا أثره .

وتزوج من ابنتى أبي بكر وعمر ، وزوج من بناته عثمان وعلياً ، تقديراً لأقدارهم ، وتثبيتاً لأواصر الصلة بينه وبينهم في سبيل دعوته وحدها .

وتزوج من أم حبيبة بنت أبي سفيان ليتألف بهذه الزيجة قلب والدها ذى الشأن الخطير ، في سبيل تدعيم دعوته بأقوى العناصر وأهمها .

وتزوج من مارية القبطية ، وصفية بنت حيي بن أخطب اليهودية ليعلن المودة والسلام بين الاسلام وغيره من الأديان الأخرى .

وهادن بين قبيلتى الأوس والخزرج بيثرب إثر الهجرة ، وأطفأ حربهما التى أكلت الأخضر واليابس ، وذلك لاستتباب الأمن ، واجتثاث أصول الفوضى والاضطراب ، وليجد لدعوته جواً هادئاً وديعاً .

وآخى بين المهاجرين والأنصار إثر هجرته أيضاً ، ليقرر مبدأ التضامن الاجتماعى ، الذى كان ضروريا لدولته الوليدة الجديدة .

وكان محمد سياسياً لبقا ، واللباقة من ضروريات السياسة ، والسياسى اللبق هو الذى يتخلص من المآزق ، ويتحاشى الوقوع فى الحرج ، وفى تاريخ محمد السياسى الكثير والكثير من هذه اللباقة السياسية . .

حين دخل المدينة راكباً ناقته عقب الهجرة ، تنافست القبائل فى استبقائه باحيائها ، وتسابقت إلى خطام الناقة لايقافها ، ولكن رسول الله خاطبهم قائلا : دعوها فانها مأمورة . . حتى إذا توقفت الناقة من نفسها عند بنى النجار ولم يكن هناك تذمر فى القبائل ، بل رضيت خواطرها . .

ونهى عن سب قتلى قريش فى غزوة بدر قائلا : « لاتسبوا هؤلاء فانه لا يخلص إليهم شىء مما تقولون ، وتؤذون الأحياء ، ألا إن البذاء لؤم » وذلك ليمنع وقوع الشغب ، ويحول دون اندلاع ألسنة الفتن .

* * *

وكان محمد سياسيا ديمقراطيا ، والديكتاتورية من معوقات السياسية ودواعى فشلها . وتاريخ محمد السياسى يشهد بديمقراطيته ؛ فلقد كان اصحابه موضع مشورته فى الأمور كلها ، إلا ما نزل به وحى من الله تعالى . . استشار أصحابه فى غزوة بدر قبل أن يبدأ القتال ، ليرى مدى استعدادهم ، ويختبر إيمانهم ، ولما وجدهم على قلب رجل واحد ، وذوى عزيمة واحدة . قال لهم : امضوا على بركة الله . .

كما أن تاريخ محمد السياسى يشهد بأنه لم يميز نفسه على سائر اصحابه، فقد كان يقول: إن الله يكره من عبده أن يتميز على غيره.

كان أبو العاص — زوج زينب بنت الرسول — ضمن أسرى بدر، فأرسلت زينب قلادة أمها خديجة فى فداء زوجها، فترك الرسول الأمر للمسلمين قائلا لهم: إن رأيتم أن تطلقوا لها أسيرها وتردوا إليها متاعها فعلتم ... قالوا نعم ..!

هذه خواطر موجزة عن محمد السياسى، وفى تاريخ محمد السياسى الكثير والكثير من عبقريته السياسية، التى لم يظفر تاريخ البشرية بمثلها.

محمد القائد

إن القيادة مهمة دقيقة خطيرة ، لا يصلح لها إلا من أوتى حزما وعزما وقوة ودهاء ، واتزاناً ووقاراً ولباقة وذكاء .

ومحمد — لم يكن قائد جيش همه أن يخوض المعامع فحسب ، ولا قائد جيل من الناس همه أن يهيء له حياة طيبة هنيئة فقط ، وإنما كان قائد أمة بأسرها، أريد لها أن تكون خير أمة أخرجت للناس ، قادها إلى الخير، وفتح لها طريق الرقى والعظمة والمدنية ، ورسم لها أصلح منهاج عرفته البشرية ، لتسير على هديه ، إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

لقد قاد محمد — ثلاث عشرة سنة — بين ربوع مكة ، كتيبة عزلاء من ضعفاء الناس ، آمنت بدعوته ، وصدقت برسالته، على مرآى ومسمع من جحافل الشرك، وعباد الوثن، وعمالقة الجاهلية، متحدية بطشهم وبغيهم، وسلطانهم ونفوذهم ، بل متحدية أصناف الأذى وألوان العذاب التى كانوا يصبونها عليها صبا، ومرت الثلاثة عشر عاما — وهى أطول من ثلاثة عشر قرنا — دون أن تفتن هذه الكتيبة المؤمنة عن دينها، ودون أن تنال ذرة من إيمانها، ودون أن تصيب عقيدتها بشىء من الفتور أو الضعف أو الوهن .

لقد كانت قوة القائد هى التى تسيطر على هذه الكتيبة وتنفخ فيها من روحها — كان يمر بأصحابه وهم يعذبون ، فيرى بعينيه، ويسمع بأذنيه، فيحتبس الدمع فى جفنيه، ولكنه لا يزيد على قوله:

« صبراً .. فإن موعدكم الجنة » إنها عبارة وجيزة ، ولكنها جديرة بأن يقف المرء أمامها طويلا ، ليدرك كيف كان محمد القائد يصوغ كتيبته في قالب من الثبات والقوة ، فهو لا يبشر المعذبين منها بالفرج أو الخلاص من العذاب المتتابع ، وإنما يوضح لها شرف الغاية التي من أجلها كافحت وناضلت ، وتحملت صنوف الأذى والعذاب .

لقد كان القائد محمد يغضبه ويثيره ، أن ينطق فرد من كتيبته المؤمنة بألفاظ تحمل في معناها الوهن والضعف والاضطراب ، وكان يحرص كل الحرص على أن يظل أتباعه ثابتي العقيدة والإيمان متحملين في سبيلها أقسى المحن وأشد الفتن — جاءه أصحابه ذات يوم وهو متوسد بردة له في ظل الكعبة ، وقد لقوا من المشركين شدة فقالوا : ألا تستنصر لنا .. ألا تدعو لنا ؟ فاحمر وجهه غضبا ، وقال : قد كان من قبلكم يؤخذ الرجل فيحفر له في الأرض فيجعل فيها ، ثم يؤتى بالمنشار فيوضع على رأسه ، فيجعل نصفين . ويمشط بأمشاط الحديد مادون لحمه وعظمه ، ما يصده ذلك عن دينه ، والله ليتمن الله هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت ، لا يخاف إلا الله والذئب على غنمه ، ولكنكم تستعجلون . !

وقاد محمد — عشرة أعوام — بين أرجاء يثرب وما حولها ، شعبا مسلما ، قاده في ميادين القتال فأدهشت انتصاراته العالم بأسره

وقاده فى مساكنه ومساجده وفى شؤون حياته فجعل منه شعباً حياً ناهضاً تعتز به الحياة .

أما الصفات التى يجب أن تتكون منها شخصية القائد الناجح، من الحزم والعزم واللباقة والدهاء وما إليها ، فمما لا ريب فيه أن محمداً قد ضرب المثل الأعلى فى جميعها . حسبنا أن نحدثك عن شىء من لباقة القائد محمد ، ولباقة القائد لا تظهر على حقيقتها إلا حين تتحرج الأمور، وقد مرت بمحمد القائد ظروف عصيبة، ومفاجآت بلغت القمة من الحرج ، ولكن لباقة محمد القائد استطاعت أن تتغلب على هذه الظروف وتلك المفاجآت وتقهرها . .

فى فتح مكة كان سعد بن عبادة — زعيم الخزرج — يحمل راية الرسول ، وأخذ يصول ويجول ، وهو يقول: ياأباسفيان! اليوم يوم الملحمة ، اليوم تستحل الحرمة ، اليوم أذل الله قريشا . فهرع أبو سفيان إلى الرسول قائلا : يا رسول الله ، أمرت بقتل قومك ؟ إنى أنشدك الله فى قومك ، وقال بعض الصحابة للرسول: ما نأمن من سعد أن تكون منه فى قريش صولة ، فطمأن الرسول أبا سفيان ، وأمر بعزل سعد ، ولكن لباقته أوحت إليه بأن يولى مكان سعد ابنه « قيسا » فعزل رجل كسعد زعيم قومه ليس بالهين ، وتركه ليثيرها حربا يوم فتح مكة والرسول لم يهدف

إلى الحرب بعد أن أمكنه الله من رقاب قريش — له خطورته أيضا ، وهنا تدخلت لباقة القائد لتحسم الأمر. فعزل سعداً ليرضى خواطر قريش المغلوبة على أمرها ، وولى مكانه ابنه ليرضى خواطر سعد ذى الشأن الخطير ..

وليست انتصارات القائد — مهما بلغ عددها — وحدها دليلا على جدارة القائد بمهمة القيادة ، فقد يستطيع القائد الديكتاتورى أن يحرز انتصارات عديدة دون أن يكون وراءه قلب واحد من قلوب جنوده معه ، فيكون فى هذه الحال أشبه بالمعتمد على رجل خشبية ، أما حين يملك القائد أجساد جنوده وقلوبهم معا ، فيكون حينئذ جديراً بمهمة القيادة وشرفها .

كان محمد القائد يملك قلوب أتباعه ، حتى يضمن الاستقرار والنجاح فى مهمته على الدوام ، والقرآن نفسه قد لفت نظره إلى هذه الزاوية تقديراً لها : « هو الذى أيدك بنصره وبالمؤمنين » « يا أيها النبي حسبك الله ومن اتبعك من المؤمنين » .

وكان الرسول يكرم أتباعه ويعتز بهم ويعتد ، لا سيما الضعفاء منهم ، فقد كان لبلال الحبشى ، ولصهيب الرومى ، وسلمان الفارسى منزلة يحسدهم عليها رجالات العرب من أهل مكة ويثرب ، وما كان اكثر ما يقول : أبغونى فى الضعفاء ، فانما تنصرون

وترزقون بضعفائكم » وما كان فى أحرج الساعات ليتحمل كلمة تنال من قدرهم . ففى فتح مكة : قال أبو سفيان وحكيم بن حزام : يا محمد، جئت بأوباش الناس — من نعرف ومن لا نعرف ، فقال : أنتم أظلم وأفجر ، فجاء رده سهماً فى نحريهما .

وكان القائد محمد حريصا أيضا على أن يحوط جنوده بسياج من الوقار ، يأبى أن ينال من قدرهم ، أو تجرح شخصياتهم لأن كلا منهم أشبه بلبنة فى الدعامة التى يقيم عليها دولته .

قد تحدث من الجندى اشياء يستحق عليها اللوم والمؤاخذة . ولكن القائد محمدا كان يلوم ويؤاخذ بقدر ، حتى تظل شخصية الجندى فى إطار من المهابة والوقار .

بلغه أن خالد بن الوليد قاتل يوم فتح مكة ولم يؤمر بالقتال ، فقال : قضاء الله خير ، وحدث أيضا أن خالداً نفسه حين ولاه الرسول بعثة إلى بنى جذيمة أن قتلهم وهم مقرون بالاسلام متأولا ، وقد جعل هذا الحادث رسول الله يرفع يديه قائلا : اللهم إنى أبرأ اليك مما صنع خالد .. ! ولكنه لم يكد يسمع الألسنة تمتد إليه لتنال منه حتى صاح قائلا : دعوا خالداً .. فانه سيف من سيوف الله سله على المشركين ... !

وحدث قبيل غزوة الفتح أن كتب حاطب بن أبى بلتعة إلى قريش يخبرهم بما أجمع عليه الرسول من التوجه اليهم — وكان حاطب ممن

حضر بدراً — ووقع الكتاب فى يد الرسول فأحضر حاطبا وسأله عما حمله على ما فعل، فقال. يا رسول الله: والله إنى لمؤمن بالله ورسوله، ما غيرت ولا بدلت، ولكنى كنت امرءا ليس لى فى القوم أصل ولا عشيرة، وكان لى بين أظهرهم أهل وولد، فصانعتهم! فقال عمر: قاتلك الله! ترى رسول الله يأخذ بالأنقاب، وتكتب إلى قريش تحذرهم؟ دعنى يارسول الله أضرب عنقه، فانه قد نافق، فقال الرسول: وما يدريك يا عمر؟ لعل الله اطلع يوم بدر على أهل بدر فقال: اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم ..!

إن ما حدث من حاطب يعتبر فى نظر القائد الضيق النظر خيانة عظمى، ولكن لباقة القائد محمد قدرت ظروف حاطب، وراعت ماضيه الناصع، وحسن نيته. ولم تتصيد الهفوات للتشفى من جندى طالما أبلى فى الاسلام بلاء حسنا . .

وقد تخلف عن غزوة تبوك نفر من المسلمين من غير شك أو نفاق بل حبسهم المرض: فانظر إلى لباقة القائد محمد، إنه لم ينسهم حتى يبعث فى أرواحهم المعنوية القوة، فقد قال: إن بالمدينة لأقواما ما سرنا من مسير، ولا هبطنا واديا إلا كانوا معنا، حبسهم المرض، فنحن غزاتهم، وهم قعدتنا، والذى نفسى بيده، لدعاؤهم أنفذ فى عدونا من سلاحنا!

بل إنه فى الظروف التى تستلزم الغضب، كان القائد محمد

يحرص كل الحرص على شخصية جنوده، ولا يدع فرصة للنيل منهم والطعن فيهم ، وإنك لتعجب كل العجب ، حين ترى أن القائد محمداً كان يغضبه ويثيره أن تمتد الألسنة إلى من يستحق أكثر من اللعنة بعمله ، فقد حدث أن جلد مسلما في شرب الخمر ، ولم يكد ينتهي جلده حتى راحت الألسنة تلعنه ، ولكن القائد محمدا أثاره هذا ، وقال : لا تكونوا عونا للشيطان على أخيكم ..!

ولقد كان القائد محمد ، مثلا أعلى للقيادة اللبقة الحازمة ، كان بعيد النظر في كل أموره، نافذ البصيرة في كل أموره وتصرفاته، فنجح في مهمته إلى النهاية ... وكان لا يحب أن يتميز على جنوده إلا في تحمل المشقات والتصدي للخطوب والصعاب ، نكسب قلوبهم جميعا ، وخاض حروبا عدة، ومعارك كثيرة ، بجيش قليل العدد والعدة ، أمام جيش من الأعداء يفوقه في كل شيء إلا في الايمان بالله ، فاستطاع أن يحوز النصر في كل معركة ... كان قائداً حربيا ، يتقن فنون الحرب ، وقائداً سياسيا يتقن فنون السياسة ، وقائداً روحياً يتقن تربية الأرواح والقلوب ..

———

وسائل الحياة الناجحة

نحو مجتمع سليم

إن الأمم الحية الراقية هى التى تظفر بمجتمعات سليمة، فالمجتمع السليم فى الأمة دليل على عظمتها ، ورمز على نهضتها ، وبرهان ساطع يثبت وجودها بين الأمم العظيمة الناهضة .

والمجتمع مجموعة أفراد هم بمثابة الأعضاء فى جسم الأمة، ولن تظل الأمة عظيمة إلا إذا سلم جسمها ، ولن يكون الجسم سليما إلا إذا سلمت أعضاؤه ، ولن تسلم أعضاؤه إلا إذا فهمت الحياة فهما صحيحاً ، يؤهلها للعيش الكريم ..

وإذا فهم فرد الحياة الصحيحة، وتنكر لفهمها آخر، لا يمكن الظفر إلا بمجتمع مضطرب ، أما إذا تعاون الجميع وتضامنوا فى فهمها ، كان من اليسير إيجاد هذا المجتمع السليم الذى تنشده أعظم الأمم وأرقاها ...

والرسول منذ اللحظة الأولى من رسالته ، وجه كل عنايته إلى إيجاد مجتمع إسلامى نظيف يعشق المثل العليا ويعيش من أجلها، ولم يودع الحياة الدنيا إلا والمجتمع النظيف السليم له قدره ومنزلته بين أرجاء الدولة الاسلامية الناهضة .

والمجتمع السليم لا بد له من تعاون أفراده وتضامنهم فى الخير لينشروه ويصونوا بناءه ، وفى الشر ليجتثوا أصوله، ويقوضوا

بنيانه ، والرسول حرص كل الحرص على أن يضع أسس هذا التعاون وذاك التضامن ، فى توجيهه وتربيته وإرشاده :

« ترى المؤمنين فى تراحمهم وتوادهم وتعاطفهم . كمثل الجسد إذا اشتكى عضوا ، تداعى له سائر جسده بالسهر والحمى ».

رواه البخارى

« أنصر أخاك ظالما أو مظلوما ، فقال رجل : يا رسول الله : أنصره إذا كان مظلوما ، أفرأيت إن كان ظالما كيف أنصره ؟ قال : تحجزه أو تمنعه من الظلم فان ذلك نصره » رواه مسلم

والمجتمع السليم لا بد له من قاعدة التناصح حتى يرسو عليها ، والرسول لم يفته أن يقرر هذه القاعدة لأهميتها فقال :

« الدين النصيحة ، قلنا لمن ؟ قال لله ولكتابه ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم » رواه مسلم

إن هناك أمراضا اجتماعية خطيرة ، تقوض أركان المجتمع وتهبط به إلى الحضيض ، ولن يوهب له الأمن والاستقرار حتى يطهر منها . وفى مقدمة هذه الأمراض النفاق والملق والتلون ، والحسد والبغضاء والبذاء وما إليها ، ولم يأل الرسول جهدا فى مكافحتها فى سبيل إيجاد مجتمع نظيف سليم :

« احثوا فى وجه المداحين التراب » — رواه مسلم

« لا تقولوا للمنافق سيد ، فإنه إن يكن سيدا فقد أسخطتم ربكم عز وجل » — رواه أبو داود .

« وتجدون شر الناس ذا الوجهين : الذى يأتى هؤلاء بوجه وهؤلاء بوجه » — متفق عليه .

« لا تباغضوا ، ولا تحاسدوا ، ولا تدابروا ، وكونوا عباد الله إخواناً .. » — متفق عليه .

والمجتمع فى مسيس الحاجة إلى الخلق الحسن ، والدول التى بلغت القمة من المجد ، والذروة من العزة ، لم تبلغ هذا وذاك إلا بالمثل العليا التى يضمها الخلق الحسن ..

والرسول لم يهتم بشىء اهتمامه بتربية المسلمين على حسن الخلق ، كيف لا ، وهو لم يبعث إلا ليتمم مكارم الاخلاق :

« أكمل المؤمنين إيماناً أحسنهم خلقاً » — رواه الترمذى .

« إنكم لن تسعوا الناس بأموالكم ، فسعوهم ببسط الوجه وحسن الخلق » . رواه البزار وغيره .

والمجتمع محتاج إلى الذوق السليم ، فإن الذوق السليم فى أفراده لدليل على رقى المجتمع وتحضره وسموه ، وكثيراً ما كان الرسول — صلوات الله وسلامه عليه — يوجه الأمة إلى الذوق السليم ، وهاك بعضاً من توجيهاته ، التى تعتبر بمثابة مبادىء للذوق السليم :

« زر غباً تزدد حباً » — رواه الطبرانى .

« سخاوة بالمرء أن يستخدم ضيفه » — رواه الديلمى .

« إذا طال أحدكم الغيبة ، فلا يطرقن أهله ليلا » . متفق عليه .

« لا يحل لرجل أن يفرق بين اثنين إلا باذنه » رواه الترمذى

« إذا كانوا ثلاثة فلا يتناجى اثنان دون الثالث » . رواه البخارى .

« لا يقيمن أحدكم رجلا من مجلسه ثم يجلس فيه ، ولكن توسعوا وتفسحوا » ـ متفق عليه .

والمجتمع فى حاجة ماسة إلى المثل العليا ، والأمم الناهضة المتقدمة لم يقم بناؤها إلا على أسس سليمة من المثل العليا فى افراده .

والرسول كان حريصاً على غرس المثل العليا فى نفوس أتباعه ، حتى يليقوا بخير أمة أخرجت للناس ، والمثل العليا لا نهاية ولا حصر لها ، فكل صفة اتصفت بها مطمئنا بها قلبك ، فاتصافك بها من المثل العليا ، وكل صفة اجتنبتها ضائقاً بها صدرك ، فاجتنابك إياها من المثل العليا ، ولقد وجه الرسول المسلم إلى المثل العليا فى حديث شريف :

« عن وابصة بن معبد أنه أتى رسول الله ﷺ فقال له : جئت تسأل عن البر والاثم ؟ قال : قلت نعم ، قال : استفت قلبك ، البر ما اطمأنت إليه النفس واطمأن إليه القلب ، والاثم ما حاك فى النفس وتردد فى النفس ، وإن أفتاك الناس وأفتوك » . رواه أحمد .

اليد العليا

الحريص على أن تكون يده العليا ، هو الحريص على كرامته وعزة نفسه حرصه على حياته . ولا نكاد نجد معنى لليد العليا أرقى وأسمى من الذى صوره الرسول فى أن يكون المرء زاهداً فيما عند الناس ، يائسا ممـا فى أيديهم ، ليظفر بالغنى الحقيقى :

« عز المؤمن استغناؤه عن الناس » ـ رواه الحاكم .

« عليك باليأس مما فى أيدى الناس ، فان ذلك هو الغنى » .

رواه ابن ماجه

إن الانسان الذى يتخذ المهنة ليستغنى بها عن الناس، ويحفظ بها ماء وجهه من أن يراق ، لهو إنسان يعشق الكرامة والعزة ، والرسول صب هذا المعنى فى النفوس صبا، وحثها على اعتناقه حتى تظل كريمة عزيزة :

« لأن يأخذ أحدكم حبله، ثم يأتى الجبل، فيأتى بحزمة حطب على ظهره ، فيبيعها . فيكف الله بها وجهه ، خير له من أن يسأل الناس أعطوه أو منعوه » . رواه البخارى

ولقد اهتم الرسول بالحث على السعى من أجل الحياة ، ليظل كل ذا يد عليا ، واعتبر أن خير ما يأكل المرء من طعام، ما كان من عمل يده ، واعتبر أن العمل شرف لم يفت أفضل الناس لدى

الله وهم الرسل صفوة الخلق — كما اعتبر أن التعب الذى يلقاه الانسان من جراء العمل مكفر للذنوب :

« ما أكل أحد طعاماً قط خيراً من أن يأكل من عمل يده ، وإن نبي الله داود عليه السلام ، كان يأكل من عمل يده » .

رواه البخارى

« من أمسى كالا من عمل يده أمسى مغفوراً له » الطبرانى

وقد ندد الرسول بالمسألة ، لأنها مهانة تضيع بجانبها كرامة السائل ، وتتلاشى شخصيته ، والرسول حريص كل الحرص على أن يظل الجميع أعضاء حية فى المجتمع منتجة للأمة ، ولما كان السؤال وسيلة حقيرة من وسائل الدعة والبطالة ، فقد ندد بها الرسول ، لا سيما الذين يسألون عن غنى ، أو يسألون تكثرا ..

« لا تزال المسألة بأحدكم حتى يلقى الله تعالى وليس فى وجهه مزعة لحم » . متفق عليه

« من يسأل الناس أموالهم تكثراً ، فانما يسأل جمرا » — مسلم

وقد تكون هناك أحوال اضطرارية ، كأن يمد أحد اليك يد المساعدة ، من غير أن تسأل ، فهذا ضرب من ضروب الانسانية ، لم يرق المحتاج فيها ماء وجهه ، ولا تدخل فيما ندد الرسول به :

« ما أتاك من هذا المال وأنت غير مشرف ولا سائل فخذه » .

رواه البخارى ومسلم

الكرامة والاعتزاز بالنفس

الكرامة والاعتزار بالنفس من أهم مقومات الشخصية العالية، التى يعتز بها ويعتد ، فلا خير فى إنسان لا ينشد الكرامة والعزة فى حياته ، ولا معنى لوجوده ، إذا هو تهاون فى أمر كرامته وعزة نفسه ، وإذا هو لم يبذل دماءه وأمواله فى سبيل المحافظة عليها .

نرى إنسانا هيناً على نفسه يتزلف إلى إنسان ينفر منه ، ويتكلف الخفة معه ، وهو يرى فيه الثقل المتجسم ، ويلصق نفسه به ، بينما هو لا يحترم له نفساً ، وقد يسدى إليه الفضل بينما هو يتنكر لفضله ، فهذا الانسان يحقر نفسه ، ويعمل على تلاشى عزته وكرامته ، وهو الذى عناه الرسول بقوله :

«لا تصحبن أحداً لا يرى من الفضل كمثل ما ترى له» رواه أبو نعيم

ونرى إنسانا آخر ، خفيفا طائشا ، يسبق لسانه تفكيره ، وتصرفه عقله ، لا يبالى ان أخطأ وأسرف فى الخطأ ، ما دام يستطيع إلحاق الخطأ بالاعتذار - والاعتذار اعتراف صريح بالنقص - وهو لا يدرى أنه يدفع ثمن خطأه من كرامته وماء وجهه وعزة نفسه، ولهذا حذر الرسول مما يعتذر منه :

« إياك وما يعتذر منه » رواه ابن ماجه

ونرى انسانا ثالثا يعشق التطفل ويتفانى فيه ، ويريحه أن يشغل نفسه سحابة النهار بماله وبما ليس له ، وبما يهمه وبما لا يهمه ، ولو

فكر قليلا لأدرك أنه يدفع ثمن تطفله هذا من كرامته وإبائه وعزة نفسه ، وما أجمل الرسول حين حارب هذا التطفل بقوله :

« من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه » ـ رواه الترمذى

ونرى صنفا من الناس غير أولئك ، يعرف قدر نفسه ، ويضن بكرامته وعزته ، يظهر بمظهر الخلق الرفيع ، فهو متواضع جم التواضع ، ولكنه إذا تواضع فانما فى غير نقص ولا منقصة ، وهو ذليل فى نفسه يكره الكبرياء الكاذبة ، وينفر من العظمة الفارغة ، ولكنه إذا ذل فى نفسه فانما فى غير مسكنة ولا حقارة ولا مهانة ، وهذا الصنف من الناس هو الذى عناه الرسول بقوله :

« طوبى لمن تواضع فى غير منقصة ، وذل فى نفسه من غير مسكنة » رواه البخارى

وقد تضطرنا ظروف قاهرة قاسية . وترغمنا أحوال قاسية على أن نطلب من بعض الناس شيئا نحتاج اليه ، ولكن فى سبيل المحافظة على الكرامة والعزة يجب أن نطلب الحوائج بعزة الأنفس حتى إذا ظفرنا بها أخذناها بعزة ، وإذا لم نظفر بها لم ندفع من كرامتنا شيئا ، ومع هذا وذاك ، فان الأمور إنما تجرى بقدر الله تعالى ، وما قدر يكن لك ، وإلى هذا المعنى يشير الرسول :

« اطلبوا الحوائج بعزة الأنفس ، فان الأمور تجرى بالمقادير »

رواه ابن عساكر

علو الهمة

أنت فى مسيس الحاجة إلى أن تكون عالى الهمة ، فعلو الهمة مرجعه علو النفس ، ويستطيع كل إنسان أن يكون عالى الهمة إذا أكبر من شأن هذه الصفة وقدرها حق قدرها ، وإلى هذا المعنى الجليل الخطير نرى الرسول يدفع عالى الهمة إلى أن تطمح نفسه ، وتتطلع عيناه إلى معالى الأمور ، ويتعفف عن سفاسفها وصغائرها :

« إن الله يحب معالى الأخلاق ويبغض سفسافها » رواه البيهقى

ويحثه على أن لا يبذل وقته رخيصا فيما لا يعنيه ، ولا يشغل عقله أو يضنى فكره فيما لا يفيد منه ولا يعود عليه بأدنى نفع .

« من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه » رواه الترمذى .

« دع قيل وقال » رواه الطبرانى .

ويغرس فيه دائما أن يحترم نفسه ويعزها ، ويضطر الناس إلى إكرامها ، ويظهرها بمظهر التجلة والاحترام ، ويضعها فى الموضع اللائق بها فلا يجالس إلا الكبراء ولا يزاحم إلا العلماء ، ولا يحرص إلا على مخالطة الحكماء :

« جالسوا الكبراء ، وسائلوا العلماء ، وخالطوا الحكماء » .

رواه الطبرانى

ولما كانت المغامرة دليلا على علو الهمة ، ورفعة النفس ، لأنها من مستلزمات الحياة لمن أراد حياة ناجحة ، ولمن أراد أن يشق طريقه نحو المجد .

فاذا بحثت عن أولئك الذين بلغوا قمة المجد وذروة السناء ، لم تجد غير المغامرة ديدناً لهم .

وإذا نقبت عن أولئك الذين تأخر بهم الركب فقنعوا بالحياة الدنيا ، وأظلمت أمامهم سبل المجد ، لم تجد غير الدعة والخمول رائدا لهم .

لذلك — لم يفت الرسول الأعظم — صلوات الله وسلامه عليه — أن يبعث روح المغامرة فى أمته آمراً إياهم بالاستعانة بالله والافلات من العجز ومسبباته :

« استعن بالله ولا تعجز ، وإن أصابك شيء فلا تقل لو أنى فعلت كان كذا وكذا ، ولكن قل : قدر الله وما شاء فعل ، فان لو تفتح عمل الشيطان » — رواه مسلم .

الاتزان والتروى

إن الحياة الصحيحة الناجحة ، لتتطلب الاتزان فى كل شىء ، والتروى فى كل أمر ، وقليل أولئك الذين يسيرون فى حياتهم على هذا المبدأ الدقيق ، ويسلمون من التسرع فى تصرفاتهم ، والطيش فى تحركاتهم وأقوالهم وأفعالهم .

الحياة الناجحة فى حاجة إلى الاتزان والتروى والتؤدة ، حتى يستطيع الانسان أن يظفر بالنجاح فى كل أموره ، وفى جميع خطواته ، وحتى يسلم من الزلل والحرج فى تصرفاته .

والرفق والأناة يمهدان للاتزان والتروى والتؤدة ، وهما دليل التفكير السليم والعقل الناضر ، والحزم الوقور ، وما أكثر ما أوصى الرسول — صلوات الله وسلامه عليه — بالرفق والأناة لقدرهما وعظم شأنهما ، وأثرهما فى توجيه الانسان نحو الحياة الصحيحة الناجحة :

« إن الله يحب الرفق فى الأمر كله » — متفق عليه .

« إن الرفق لا يكون فى شىء إلا زانه ، ولا ينزع من شىء إلا شانه » — رواه مسلم .

« العجلة من الشيطان ، والأناة من الله » — رواه الترمذى .

والانسان فى حياته معرض للأزمات المستعصية ، والامور

المحرجة ، والضوائق الشديدة المستحكمة الحلقات ، فلا بد له من الصبر والتؤدة ، حتى يهبه الله المخرج ، ويهديه إلى الخلاص ، ويسهل له طريق النجاح .

« إذا أردت أمراً فتدبر عاقبته ، حتى يريك الله منه المخرج »
رواه البخارى

والانسان فى حياته معرض لأن يسلك طريقا من الطرق ، أو يغامر فى ناحية من النواحى ، أو يهدف إلى هدف من الأهداف ، وفى هذه الأحوال جميعها ، يكون فى مسيس الحاجة إلى التدبير وبعد النظر ، ودراسة الطريق قبل أن يسلكه ، والناحية قبل أن يغامر فيها ، والهدف قبل أن يصوب اليه جهده ، وتقدير النتائج قبل كل شىء ، وإلى هذا يوجه الرسول ويرشد :

« يا أبا ذر ، لا عقل كالتدبير . . » رواه ابن ماجه .

« إذا أردت أمراً فتدبر عاقبته ، فان كان رشداً فأمضه ، وإن كان غيا فانته عنه » رواه ابن المبارك .

الصمت

الانسان الرزين الوقور ينال دائماً تقدير الناس وثقتهم، وينال احترامهم واجلالهم، والثرثار دائما موضع الزراية والاستخفاف. ومما لاريب فيه أن الحياة تتطلب انسانا متزنا ينفق كلامه في حكمة وروية ، ويؤثر الصمت في معظم احواله وجل أوقاته . لأن الصمت سبيل المرء الى المهابة ، ولان الصمت دليل الرزانة ، وعنوان الوقار .

وما أعظم رسول الله - صلوات الله وسلامه عليه - حينما جعل الصمت سببا للنجاة من كل ما ينغص حياة المرء، والسلامة من كل ما يعكر صفوه ويكدر عيشه :

« من صمت نجا » . رواه الطبراني

سئل عن النجاة فقال :

« أمسك عليك لسانك » . رواه الترمذي

وما أعظمه ، حين اعتبر أن حسن الخلق والصمت من أفضل ما تجمل الخلائق به :

«عليك بحسن الخلق وطول الصمت ، فو الذى نفسي بيده ، ما تجمل الخلائق بمثلهما » . رواه أبو يعلى

وما أعظمه أيضاً ، حين اعتبر الصمت سيد الأخلاق :

« الصمت سيد الأخلاق ، ومن مزح استخف به » .

رواه الديلمى

إن الثرثرة تذهب ببهاء المرء ووقاره ، وتضع من قدره وشأنه ، وما أعظم الرسول - صلوات الله وسلامه عليه - حين يصفها بأنها سبب لمتاعب المرء ، وحين يجعل الثرثار أبغض الناس إليه ، وأبعدهم منه مجلسا :

« كفى المرء كذبا أن يحدث بكل ما سمع » . رواه مسلم

« وهل يكب الناس على مناخرهم إلا حصائد ألسنتهم » .

رواه الترمذى

« إن من أبغضكم إلى ، وأبعدكم منى مجلساً : الثرثارون والمتفيهقون والمتشدقون » .

رواه الترمذى

المرونة والمداراة

إذا كان الانسان صلباً متعسفاً ، عاش فى حياته ضجراً متعبا ، وإذا كان مرناً سهلا ، سلك طريقه فى الحياة ، مستريح النفس مطمئن الخاطر .

إن المرونة لا تكلفك جهداً ، ولا تحملك ما لا تطيق ، بل على العكس ، فانها تريح قلبك وتهدىء أعصابك ، وتمهد لك أقرب السبل ، وأيسر الطرق إلى نيل مآربك ، وقضاء مصالحك ، وتحقيق آمالك وغاياتك .

وليس من المرونة فى شىء أن تقابل الاساءة بالاساءة ، والقطيعة بالقطيعة ، والظلم بالظلم . فان هذه الأخلاق من شأنها أن تعقد أمور الحياة وتعسرها ، أما إذا قوبلت الاساءة بالاحسان ، والقطيعة بالوصال ، والظلم بالعفو ، سارت الامور وتيسرت ، ووصلت سفينة المجتمع الى شاطىء السلامة والنجاة :

« عد من لا يعودك ، واهد لمن لا يهدى لك » . البخارى

« إبتغوا الرفعة عند الله ، قالوا : وما هى يا رسول الله ؟ قال : تصل من قطعك ، وتعطى من حرمك ، وتحلم عمن جهل عليك » .

رواه الحاكم

والمداراة صنو المرونة وحليفها ، فهى من أهم مقومات الحياة

الصحيحة الناجحة، والحياة تتطلبها دائماً ، وتدعو إلى التسلح بها والتزود منها .

وليس الاستغناء عنها من الشجاعة والجرأة فى شىء، ولا من الحزم وبعد النظر فى قليل أو كثير .

بل إن المستخف بها والمتعفف عنها لمصاب بعقم فى التفكير ، وفساد فى الرأى ، وظلام فى العقل . .

لا يخلو عصر من العصور من أشرار . . . فماذا يجد الانسان غير المدارة ملجأ ، حتى يتقى شرهم ، ويسلم من خطرهم ، وينجو من عدوانهم وبغيهم، ويصون دينه وعرضه من عبثهم ومجونهم ، والرسول الأعظم يقرنا على مداراتهم ومصانعتهم بأموالنا وألسنتنا، وذلك لنعيش فى جو هادىء لا قلق فيه ولا تنغيص :

« من استطاع أن يقى دينه وعرضه بماله فليفعل » — الحاكم

« قوا بأموالكم عن أعراضكم ، وليصانع أحدكم بلسانه عن دينه » . رواه ابن عساكر

وقد يضطر الانسان فى حياته إلى مخالطة صنف من الناس شاذ فى أخلاقه ، فلا عليه إذا عاشر هذا الصنف بالمعروف والحكمة ، بل إنه ليس بحكيم إذا لم يعاشره حتى يغنيه الله عنه :

« ليس بحكيم من لم يعاشر بالمعروف من لا بد من معاشرته، حتى يجعل الله له من ذلك مخرجا » . رواه البيهقى

الناس أربعة

الناس فى دنياهم درجات ، وفى حياتهم منازل، والعلم والجهل هما مقياس للناس جميعاً، فالعلم ينير الطريق المستقيم للانسان ويهديه سبل الحياة الناجحة، فلا يضل ولا يشقى، ولا يرهق ولا يجهد. والجهل يسير بالانسان فى طريق ملتو معوج ملىء بالاشواك ، ويهديه سبل الحياة المعقدة المنغصة، فيضل ويشقى، ويجهد ويتعب.

والرسول وضح درجات الناس فى هذه الحياة، وقاسهم بمقياس العلم والجهل، وذكر أن الناس أربعة: رجل آتاه الله علماً ومالا، فأعانه علمه على التصرف فى أمواله بحكمة وعقل ، وراح ينفق أمواله فيما ينفع نفسه ووطنه وأمته، ويؤدى حق الله فيه للسائل والمحروم، ويسهم فى المشروعات الانسانية ، والعمرانية، ورجل آتاه الله علماً ولم يؤته مالا، فأظهر نية طيبة، وعزماً صادقا، وتمنى لو أن الله أعطاه مالا، لاقتدى بذلك الرجل وأنفق ماله فيما أنفق فيه صاحبه ، فالعلم قد نفع الرجلين ؛ الأول بعمله والثانى بنيته ، ولذلك جعلها الرسول فى الأجر سواء . . ورجل ثالث، أعطاه الله مالا ولم يعطه علماً، فراح يتخبط بماله ويبعثره فى سبل الشيطان واستولى عليه الجهل والحمق والسفه والحزن ، فأخذ يعصى الله ويتمرد عليه ، ويتنكر لنعمته ، أشبع بماله شهواته ، واستجاب

لأهوائه ورغباته ، دون أن يصل به رحمه ، أو يعين به فقيراً محتاجاً ، أومسكيناً بائساً ، أوشقياً محروماً ، ولم يذهب به هذا المذهب إلا حرمانه العلم ، وبحرمانه العلم ، حرم العقل الناضر ، والتفكير السليم .. ورجل رابع ، لم يؤته الله علماً ولم يؤته مالا ، فأضله الجهل ، حتى راح يتمنى أن لو أعطاه الله مالا ، حتى يسير سير صاحبه الجاهل ، وينتهج طريقته ، ويبعثر أمواله فى طريق غوايته ويسلمها للشيطان ليمهد بها سبيل الفسق والفجور ؛ فهل ترى أحمق من هذا الجاهل الذى يتمنى الشر ، ويشتهى الانحدار إلى الهاوية ؟ ولذلك جعله وصاحبه فى الوزر سواء ، فالأول اكتسب الوزر بعمله ، والآخر اكتسبه بنيته ، وإنما الأعمال بالنيات ، وإنما لكل امرىء ما نوى .

هكذا يفصل الرسول أنواع الناس فى هذه الحياة .

« مثل هذه الأمة مثل أربعة : رجل آتاه الله مالا وعلماً ، فهو يعمل بعلمه فى ماله ، ورجل آتاه الله علماً ولم يؤته مالا ، فيقول : رب لو أن لى مالا مثل مال فلان ؛ لكنت أعمل فيه بمثل عمله ، فهما فى الأجر سواء ، ورجل آتاه الله مالا ولم يؤته علماً ، فهو ينفقه فى معاصى الله ، ورجل لم يؤته علماً ولم يؤته مالا فيقول : لو أن لى مالا مثل مال فلان ، لكنت أنفقه فى مثل ما أنفقه فيه من المعاصى ، فهما فى الوزر سواء » — الترمذى

ضريبة الانسانية

إن للانسانية ضريبة مقدسة، يشعر بها، ويعتز بقدسيتها كل من يعتبر نفسه عضواً فى المجتمع يجب أن يعمل من أجله، ويتفانى فى سبيل خدمته وانهاضه واسعاده.

والرسول الأعظم كثيراً ما ابرز هذا المعنى الحى فى تربيته وتوجيهه وإرشاداته، وطالما حث على اعتناقه والاعتداد به، وطالما حث على ان يشعر كل فرد من أفراد الامة به، لأن الأمة وحدة مترابطة، ولا تسعد إلا باعضائها، وحين يشعر كل عضو فى الامة بأن عليه ضريبة يجب أن يؤديها للانسانية لابد أن تحيا الحياة الطيبة، وتعيش العيش الرضى..

وضريبة الانسانية فى متناول كل فرد ان يؤديها، وقد وضح الرسول ﷺ طرقا ووسائل بحيث لا يعجز فرد امامها، ولا يستطيع فرد الهرب والتهرب منها.

وأهمية هذه الضريبة هى أن يشعر كل عضو بوجود أمته ويشعر بجانب هذا بحق مجتمعها عليه، فيؤدى للانسانية الضريبة التى تعود بالخير على أمته ومجتمعها، وما أجمل الرسول حين اعتبر أن كل سلامى فى الانسان عليه صدقة — والسلامى هو كل مفصل فى الجسم — ولكثرة السلاميات فى الجسم، وضح الرسول

كثرة الطرق التى يمكن للانسان أن يدلى فيها بصدقاته، مما لا يعجز أمامها فرد واحد، ولا يستطيع أن يتهرب منها إلا كل جاحد يعيش فى حياته جماداً أو أهون من الجماد :

« كل سلامى عليه من الناس صدقة، كل يوم تطلع فيه الشمس تعدل بين الاثنين صدقة ، وتعين الرجل فى دابته فتحمله عليها أو ترفع له عليها متاعه صدقة ، والكلمة الطيبة صدقة ، وبكل خطوة تمشيها إلى الصلاة صدقة ، وتميط الأذى عن الطريق صدقة » .

متفق عليه

وفى حديث آخر وضح الرسول طرقا أخرى ، يؤدى الانسان فى مجالها ضريبة الانسانية المقدسة ، فقال :

« على كل مسلم صدقة ، قال : أرأيت إن لم يجد ؟ قال يعمل بيديه فينفع نفسه ويتصدق، قال أرأيت إن لم يستطع ؟ قال : يعين ذا الحاجة الملهوف ، قال : أرأيت إن لم يستطع ؟ قال : يأمر بالمعروف — أو الخير — قال : أرأيت إن لم يفعل ؟ قال : يمسك عن الشر ، فانها صدقة » .

متفق عليه

ولقد أجمل الرسول طرق الخير ، فى شىء واحد لا يدع مجالا لمعتذر ، ألا وهو المعروف ، فقال :

« كل معروف صدقة » .

متفق عليه

الرجولة والشجاعة

لا خير فى حياتك إذا لم تكن رجلا شجاعا ، والرجولة والشجاعة من ضروريات الحياة ، لمن يريد حياة أبية كريمة .

وليست الرجولة والشجاعة أن تبطش بالضعيف ، وتستخف بالأعزل ، وتبغى على العاجز ، ولكن الرجولة والشجاعة أن تعلى كلمة الحق أينما كنت ، لا تخاف فى الله لومة لائم ، ومهما كلفك إعلاؤها من جهد وبذل وتضحية .

ولا تستقيم شؤون الحياة لفرد ولا لجماعة إلا إذا علت كلمة الحق ووجدت رجولة تسندها ، وشجاعة تؤيدها :

« بايعنا رسول الله على أن نقول بالحق أينما كنا ، لا نخاف فى الله لومة لائم » — متفق عليه من حديث عبادة .

« أوصانى خليلى — صلى الله عليه وسلم — بصلة الرحم — وإن أدبرت — وأمرنى أن أقول الحق وإن كان مرا »

رواه ابن حبان

« لا يمنعن رجلا هيبة الناس أن يقول الحق إذا علمه » .

رواه ابن ماجة

والرجل الشجاع يجهر بالحق دون أن يبالى بوعد أو وعيد ، فقول الحق لا يقدم أجلا ، ولا يحرم رزقا ، لأن الله مؤيده وناصره وآخذ بيده :

« لا ينبغى لامرىء شهد مقاما فيه حق إلا تكلم به ، فإنه لن يقدم أجله ، ولن يحرم رزقه » — رواه البيهقى .

وأحق ألوان الرجولة والشجاعة بالتقدير ، أن ترفع كلمة الحق فى مجالس ذوى الجاه والسلطان ، لا سيما إذا كانوا فجرة ظلمة يخشى بأسهم ، ويخاف شرهم ، دون أن تخاف فيه لومة لائم ، لأن إعلان كلمة الحق فى مجالس هؤلاء : مما يعود على الأمة جميعا بالخير — ولهـذا كان رفع كلمة الحق فى مجلس السلطان الجائر أفضل الجهاد ، وكان القتيل بين يديه بسبب رفع كلمة الحق سيد الشهداء . .

« أفضل الجهاد كلمة حق عند إمام جائر » — رواه أبو داود

« سيد الشهداء حمزة بن عبد المطلب ، ورجل قام إلى إمام جائر فأمره ونهاه . . . فقتله » — رواه الحاكم .

كن عصاميا

ما أحوج كل إنسان إلى أن ينشأ عصاميا ، يعتمد على نفسه غير معول على أحد .

وما أحوج كل إنسان أيضا إلى أن يربى تربية استقلالية ، فيشب رجلا مكتمل الرجولة فى كل شىء ، وكان عظيما من محمد — صلوات الله وسلامه عليه — أن يهتم بهذه التنشئة وتلك التربية اهتماما بالغاً ، فينهى المسلم عن أن يكون إمعة لا رأى له ، يسير مع الناس حيثما ساروا ، وإن أحسنوا أو أساءوا .

« لا يكن أحدكم إمعة ، يقول : أنا مع الناس ، إن أحسن الناس أحسنت وإن أساءوا أسأت ، ولكن وطنوا أنفسكم إن أحسن الناس أن تحسنوا وإن أساءوا أن تجتنبوا إساءتهم » .

وقد تعجب كل العجب أن ترى طائفة من الجهال لا هم لهم إلا التشدق بالأحساب ، والثرثرة بالأنساب ، ويطيب لهم التبارى والنزال فى هذا الميدان ، وهذه وصمة جهل وحمق وغباوة ، يوصمون بها أنفسهم ، ذلك لأنهم يريدون أن تكون الحياة الناضرة ، والمعيشة الراضية وقفا عليهم دون غيرهم .

وكان عظيما منه أن يكافح هذه النعرة الجاهلية ، ليعيش الانسان بعمله — وحده — مرفوع الرأس ، عالى الجبهة .

« من أبطأ به عمله ، لم يسرع به نسبه ، ومن أسرع به عمله لم يبطىء به نسبه » رواه مسلم

وهناك طائفة أخرى من هؤلاء الجهلة، لا مهمة لهم فى الحياة، إلا الفخر بآبائهم ، متخذين من هذا سبيلا إلى احتقار الناس والاستخفاف بأقدارهم، وكم ندد الرسول بهؤلاء الجهلة الأغبياء:

« ليدعن قوم الفخر بآبائهم ، وقد صاروا فحما فى جهنم ، أو ليكونن أهون على الله من الجعلان التى تدوف بآنافها القذر »

رواه الترمذى وغيره

وهناك طائفة ثالثة ، تعتمد على عصبية نكراء فى إثارة الفتن وإشعال نار الفوضى — تأبى إلا أن تفرض سيادتها فرضاً على البلد الذى تعيش فيه ، وتأبى إلا أن تكون لسانه الناطق ، وقلبه النابض وعقله المدبر ورأسه المفكر ..!

هكذا صارت العصبيات مثار الفتن ، ومبعث المحن ، ينشأ من يربون بين أحضانها تنشئة حمقاء ، ويندر أن ينشأ فرد واحد منهم عصاميا معتزاً بنفسه ، معتدا بشخصه ، ما دام له من عصبيته متكأ وسند ..!

لا زالت هذه العصبيات نكبة الشرق الاسلامى ، والدارس لأحواله ، والمتجول بين شعوبه ، يبدو له جلياً رزية العصبيات ، التى تحترف استعباد العزل والاستبداد بالضعفاء ، وقتل الروح

المعنوية والقضاء على الشجاعة الأدبية ..!

أليس عظيما بعدئذ من محمد — صلوات الله وسلامه عليه — أن يندد بالعصبية تنديداً قاسياً مراً — ويبرىء الاسلام منها . ؟

« لا عصبية في الاسلام » .

ليس منا من دعا إلى عصبية، وليس منا من قاتل على عصبية ، وليس منا من مات على عصبية » .

« من قاتل تحت راية عمية ، يغضب لعصبة ، أو يدعو لعصبة ، أو ينصر عصبة فقتل ، فقتلته جاهلية » — متفق عليه .

وهناك طائفة رابعة أدهى وأمر ، وأكثر حمقا وغباوة وجهلا ، وأشد سفاهة وصفاقة وتنطعا .

تخلق لنفسها عصبية من المال والعبيد ، فلا يخجل أحدهم أن يحرز لشخصه عشرات من العبيد يأكلون ويتمتعون كما تأكل الأنعام، يثورون لثورته، ويغضبون لغضبه ويستجيبون لصيحته ولو كانت لأزهاق الأرواح وإتلاف الأرض وقطع الطرق . !

أليست هذه هي الطائفة الحمقاء التي أنذرها محمد — صلوات الله وسلامه عليه — بالذلة والمسكنة :

« من اعتز بالعبيد أذله الله . » رواه ابو نعيم

أسرار الحياة الفاشلة

اليأس

الانسان معرض فى حياته لأزمات قد تكون مستحكمة ، ومعرض لمشكلات قد تكون مستعصية ، فمن الخطأ أن يقف أمام هذه الأزمات وتلك المشكلات ، مكتوف اليدين ، مشلول التفكير ، معتوه البصيرة ، لا يسعى فى التغلب على أزماته ولا يجهد نفسه لحل مشكلاته ، بل يستسلم لليأس ، ويستكين للدعة والكسل .

إن اليأس مرض خطير ، لا يستقيم لأمة حال إذا سيطر على أفرادها ، لأن اليأس يقتل المواهب ، ويثبط الجهود ، ويعرقل المغامرة ، ويقضى على معالم الحيوية والقوة ، ويحطم الآمال التى تستحث الهمم ، وتستثير التنافس والمثابرة .

وأشد ألوان اليأس خطورة على كيان الأمم ، ذلك اليأس الذى يدفع المرء إلى التهرب من الحياة وتكاليفها ، فيشتهى الخلاص من الدنيا ، أو يعمد إلى الخلاص منها ، والرسول عليه السلام يندد بهذا اللون من اليأس :

« لا يتمنين أحدكم الموت لضر نزل به » .

رواه البخارى

« من تردى من جبل فقتل نفسه ، فهو فى نار جهنم خالداً

مخلدا فيها أبداً ، ومن تحسى سماً فقتل نفسه فسمه فى يده يتحساه فى نار جهنم خالداً مخلداً فيها أبداً ، ومن قتل نفسه بحديدة ، فحديدته فى يده يتوجأ بها فى بطنه فى نار جهنم خالداً مخلداً فيها أبداً » .

متفق عليه

وهناك لون من اليأس يدفع الانسان إلى التردد فى جميع أحواله ، ويسلط عليه الندم يسلبه هدوءه وراحته ، فاذا خطا خطوة لم يصبها التوفيق ، وإذا غامر مغامرة لم يحالفها النجاح ، تحسر وضرب كفاً بكف، واستسلم للهواجس والوساوس تلعبان به ، وتسيطران عليه ، ولم يفقه أن مرات الفشل إن هى إلا خطوات سريعة نحو النجاح ، والرسول عليه السلام كافح هذا اللون بقوله :

« .. واستعن بالله ولا تعجز ، وإن أصابك شىء فلا تقل لو أنى فعلت كان كذا وكذا ، ولكن قل قدر الله وما شاء فعل ، فان لو تفتح عمل الشيطان . »

رواه مسلم

والرسول — يتولى مكافحة الهم الذى يغرسه اليأس فى الانسان ، حتى يستقبل الانسان حياة باسمة لا تنغيص فيها ولا تعكير ، ولا هلع فيها ولا جزع وحتى لا تضعف همته ولا تتخاذل عزيمته ، وحتى يستطيع أن ينتج فى صبر وثبات ، وجد واتزان :

« الهم نصف الهرم » رواه الديلمى

« لا يكثر همك ، ما قدر يكن ، وما ترزق يأتك » رواه البيهقى

الرياء

من شر ما أصيب به الأمم هو الرياء ، هـذا المرض الذى يستشرى فى كثير من الأمم دون رحمة ، ويذهب ببهاء أعمالها ، ويكدر صفو نضالها فى الحياة .

إنك لترى أناسا يعملون ، ويسرفون فى العمل ، ولكن وجهتهم فى العمل حب الظهور والسمعة والرياء .

وترى أناساً يناضلون ويكافحون ويجاهدون ،ولكن وجهتهم فى نضالهم وكفاحهم وجهادهم ، أن يقال عنهم،مناضلون،كافحون.. مجاهدون ..

وترى أناساً فى المناسبات الانسانية ، والمناسبات الوطنية يتبرعون عن سخاء مفرط ، ولكن وجهتهم فى تبرعاتهم ، أن تسجل تبرعاتهم فى قائمة المتبرعين، وتسجل أسماؤهم فى سجل الشرف .

وترى أناساً يعملون ، أو يتبرعون ، ولكنهم يملأون الدنيا ثرثرة وصخباً ، مدفوعين بشهوة الرياء التى تغلغلت فى نفوسهم .

هؤلاء جميعاً . . لا يقصدون وجه الله ولا وجه الوطن ، ولا وجه الانسانية ، فلا مثوبة لهم على عملهم ، أو نضالهم ، أو تبرعهم ، لانهم قبضوا الثمن مقدماً من الرياء . .

« قيل يا رسول الله : رجل يبتغي الجهاد في سبيل الله وهو يبتغي عرضاً من عرض الدنيا ، فقال : لا أجر له » متفق عليه.

« وقال له أبو إمامة : أرأيت رجلا غزا يلتمس الأجر والذكر ماله ؟ قال : لا شيء له . . » — رواه النسائي .

إن الرياء من أخطر الأمراض الاجتماعية على الأمم ، فهو يشجع المرضى به على أن يعملوا من أجله وحده ، ولكنهم إذا لم يتيسر المجال لتحقيق رغبتهم من الرياء والسمعة والشهرة ، تقهقروا وتكاسلوا ، وانهار ركن كان الوطن مضطراً إلى أن يعتمد عليه.

كانت الألقاب والأوسمة مثلا ، هي هدف المرائين في كل اعمالهم وتبرعاتهم . . ولم تكد تلغى الألقاب حتى انكمش طلابها . . أما إذا أزيلت الرغبات ، وابتغى العاملون وجه الله ورفعة الوطن ، دامت أعمالهم وبورك فيها ، والرسول صلى الله عليه وسلم كان حريصاً على أن يوجه العاملين إلى الله وحده ليكافح هذا المرض .

« إن الله لا يقبل من العمل إلا ما كان خالصاً وابتغى به وجهه » — رواه النسائي .

ولقد ندد الرسول كثيراً بالرياء لأنه السوس الذي ينخر في كيان الأمة ، ويشوه بهاءها حتى سماه الشرك الأصغر .

« إن أخوف ما أخاف على أمتي الشرك الأصغر ، قالوا : وما الشرك الأصغر ؟ قال : الرياء » — رواه أحمد .

المجون

المجون هو الاستخفاف المعيب والاستهتار المشين ، ولا يكاد يخلو مجتمع فى أى عصر من العصور من هذا المرض الخطير .

والانسان الماجن لا يبالى بما يفعل، ولو كان جريمة فى حق الدين والوطن والانسانية والمجتمع ، ولا يكترث لما يحدث ، ولو كان مجانباً للفضيلة والمروءة ، والذوق والكرامة والشرف.

ليس هناك أدنى فرق بين الماجن والمعتوه، وليس هناك أدنى شك فى أن الانسان الماجن لا يمكن أن يسلم من الحمق والغباوة والجهل ، وهذه جميعاً تسيطر على عقله سيطرة تامة ، حتى يفقد قواه فيسىء التصرف ويتخبط فيه ذات اليمين وذات الشمال .

وشر ألوان المجون ما يدفع المريض به إلى الفخر بجرائمه وآثامه وفجوره ، والتشهير بما يرتكب من مخاز ورزايا ، حتى ولو كان الله عز وجل قد ستر عليه كل أولئك... وهذا اللون من المجون يعتمد على الحمق والاستهتار والتبجح ، وكفى بهذه رزية وأى رزية ، وإلى هذا اللون البغيض الممقوت يشير الرسول بقوله :

« كل أمتى معافى إلا المجاهرين ، وإن من المجانة أن يعمل الرجل بالليل عملا ثم يصبح وقد ستره الله، فيقول: يا فلان ، عملت

البارحة كذا وكذا ، وقد بات يستره ربه ويصبح يكشف ستر الله عنه » .　　　　رواه البخاري

ومما لا ريب فيه ، أن المجون لا ينمو إلا في نفوس من لا حياء فيهم ، لأن هناك عداء مستحكما بين المجون والحياء ، فلا مجون حيث الحياء ، ولا حياء حيث المجون ، ولقد أكد الرسول هذا المعنى بقوله :

« إن مما أدرك الناس من كلام النبوة الأولى ، إذا لم تستح فاصنع ما شئت » .　　　　رواه البخاري

وما أجمل الرسول حين يغرس الحياء في النفوس حتى تخلص من المجون ، هذا الداء الدوى الوبيل ...

« الحياء خير كله » .　　　　رواه مسلم

« الحياء لا يأتي إلا بخير » .　　　　متفق عليه

« الحياء شعبة من الايمان » .　　　　متفق عليه

« إن الله يحب الحيي الحليم » .　　　　رواه الطبراني

« الحياء والايمان قرنا جميعاً ، فاذا رفع أحدهما رفع الآخر » .

رواه أبو نعيم

الغرور

الغرور مبعثه الجهل المطبق، والعجب بالنفس شر أنواع الغرور، والرسول الأعظم — صلوات الله وسلامه عليه — يصم المغرور المعجب بنفسه بالجهل وينذره بالهلاك .

« كفى المرء جهلا إذا أعجب برأيه ». رواه الطبراني

« ثلاث مهلكات : هوى متبع ، وشح مطاع ، وإعجاب المرء بنفسه » . رواه أبو الشيخ

وما أعظمه — صلوات الله وسلامه عليه — حين يكافح الغرور في أسلوب عذب، فيظهر شخصيته العظمى بمظهر شخصية عادية، يجرى عليه ما يجرى على الجميع سواء بسواء .

« إنما أنا بشر أنسى كما تنسون ، فاذا نسيت فذكروني ».

متفق عليه

« إنما أنا بشر ، إذا أمرتكم بشيء من دينكم فخذوا به ، وإذا أمرتكم بشيء من رأيي فانما أنا بشر » . متفق عليه

« إنما أنا بشر، وإنه يأتيني الخصم، فلعل بعضهم أن يكون أبلغ من بعض، فأحسب أنه صادق، فأقضي له، فمن قضيت له بحق مسلم فانما هي قطعة من النار ، فليحملها او يذرها ». متفق عليه

« لن يدخل أحد كم عمله الجنة، قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: ولا أنا إلا أن يتغمدنى الله بفضل منه ». متفق عليه

إن الغرور يفسد على المرء حياته ، وينغص عليه عيشه ، فهو لا يستطيع أن يسلك الحياة وحيداً ، ولا غنى له عن المجتمع الذى يعيش فيه ، ولن يتيسر له العيش المطمئن إلا إذا نال محبة الناس ولن يدرك محبة الناس مغرور أبداً ، فالغرور يجنى عليه من حيث يشعر ومن حيث لا يشعر .

والرسول — صلوات الله وسلامه عليه — لم يفته أن يكافح الدوافع التى تدفع الانسان إلى الغرور ، كأن يحب أن يتميز على غيره من الناس ، وهو لون من الغرور الكاذب ، وفى هذا يقول عليه السلام :

« من سره أن يتمثل له الرجال قياماً ، فليتبوأ مقعده من النار ». رواه أبو داود والترمذى

الأثرة والأنانية

إن هناك مرضا اجتماعيا خطيرا ، هو الأثرة والأنانية ، إذا تفشى فى مجتمع لم يدعه إلا بعد أن تنهار أركانه ، وينقرض كيانه ، وتنحل روابطه .

وإذا توغل فى أمة لم يذرها إلا خاوية على عروشها ، تتعثر خلف الصفوف ، وتنكمش فى زوايا الاهمال ، وتترنح فوق حضيض الدعة والخمول ...

هذا الداء الخبيث ... يوجه كل فرد فى المجتمع إلى أن يعمل لنفسه ، وأن يعيش لنفسه ، لا يحب لأخيه ما يحب لنفسه ، ولا يكره له ما يكره لنفسه ، لا يبالى إن اجتاحت الفاقة المجتمع ، ما دام هو يمرح فى الثروة والغنى ، ولا يبالى إن هلك المجتمع جوعا ، ما دام هو يتلوى من التخمة ، ولا يبالى إن امتص الشقاء المجتمع ، ما دام هو يرتع فى بحبوحة من السعادة ...

والرسول — صلوات الله وسلامه عليه — يتولى مكافحة هذا الداء الخبيث ، حتى يسلم المجتمع منه ، فينفى الايمان عن الأنانى ليكون عظة وعبرة لغيره .

« لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه » متفق عليه

« ليس المؤمن بالذى يشبع وجاره جائع الى جنبه » .

رواه البخارى

والرسول يغرس فى النفوس حب القناعة ، حتى تتخلص من الانانية ، فيشير إلى أن قدم الواحد كاف لاثنين ، وأن طعام الاثنين كان لأربعة . . وهكذا حتى إذا فاجأت المجتمع جائحة الجوع ، وكارثة المجاعة ، استطاعت المشاركة أن تخفف من وطأتهما ، وتدفع غائلة الجوع والمجاعة عن المجتمع :

« طعام الواحد يكفى الاثنين ، وطعام الاثنين يكفى الأربعة ، وطعام الأربعة يكفى الثمانية » .

رواه مسلم

ولقد ضرب الرسول الأعظم مثلا حيا فى مكافحة الأنانية ، لبعض أصحابه وهم فى سفر ، وقد ألمت بهم حاجة وأصابتهم شدة ، فأمر بألا يمسك أحد ما تبقى معه من فضل زاد أو ظهر أو مال ، حتى ظن أصحابه ألا حق لأحد فى فضل .

« قال أبو سعيد الخدرى رضى الله عنه : بينما نحن فى سفر مع النبي صلى الله عليه وسلم إذ جاء على راحلة له ، فجعل يصرف بصره يمينا وشمالا ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : من كان معه فضل ظهر فليعد به على من لا زاد له ، فذكر من أصناف المال ما ذكر ، حتى رأينا أنه لا حق لأحد منا فى فضل » .

رواه البخارى

ولقد امتدح ـ عليه السلام ـ قوما لا أنانية فيهم ، فهم إذا قل طعامهم فى سفر أو إقامة جمعوه وقسموه بينهم بالسوية :

« إن الأشعريين إذا أرملوا فى الغزو ، أو قل طعام عيالهم بالمدينة ، جمعوا ما كان عندهم فى ثوب واحد ثم اقتسموه بينهم فى إناء واحد بالسوية ، فهم منى وانا منهم » .

متفق عليه

دروس فى الحياة

دع ما يريبك الى مالا يريبك*

هناك أمر يقدم عليه المرء وهو مرتاب فيه ، غير مطمئن اليه يقدم رجلا ويؤخر أخرى . ويدفعه الأمل خطوة ويؤخره الوجل خطوات . وتداخله الطمأنينة والارتياح حينا ، ويساوره القلق والاضطراب أحياناً .

وهناك أمر آخر يقدم عليه الانسان وهو ثابت مطمئن ، لا يقربه الونى ، ولا يتملكه الشك ، ولا يتطرق إليه اليأس ، ولا يستحوذ عليه الملال ، بل يحدوه الأمل ويشمله اليقين ، وتملأ قلبه الثقة ، ويقوى عزيمته الرجاء .

وليس هناك عاقل واحد ، يؤثر الأمر المضطرب الذى يحوطه القلق ، على الأمر الثابت المطمئن ، المعتمد على أسس من الاستقرار .

والرسول الأعظم - صلوات الله وسلامه عليه - فى هذا الدرس الرفيع ، يعلمنا أن الحياة تتطلب من الانسان أن يترك كل ما يريبه ولا يطمئن إليه ، ويقدم على مالا يريبه ويثق بالنجاح فيه ، وبهذا يستطيع أن يشق طريقه فى الحياة مرتاحا مطمئنا ، يحالفه الفوز ولا يعترضه الفشل .

---

* رواه الترمذى

ان من خيركم احسنكم قضاء*

مقياس الرجل فى كل نواحى الحياة معاملته ، فاذا حسنت معاملته استطاع أن يسلك حياته ناجحا ، لا يثقله هم، ولا ينغصه كدر ، وإذا ساءت معاملته سلك حياته متعبا منغصا ، وقلقا متعثرا ، ينفر الناس منه ، ويتجنبون معاملته ...

كم من فقير لا يملك من الدنيا شيئاً ولكنه يعيش غنيا بمعاملته الطيبة ، إذا احتاج مد الناس إليه أموالهم بأيديهم ، وتنافس المقتدرون فى سد حاجته ، اطمئنانا إلى حسن معاملته ، ووفائه فى قضاء دينه ، وكم من غنى يملك من متاع الدنيا الكثير والكثير ولكنه فى معظم الأحيان يعيش فقيرا ، وذلك لسوء معاملته ، فاذا نزلت به شدة ، واحتاج إلى المال يخلصه مما نزل به من شدة، لم يجد إلى هذا المال سبيلا، يمد يده إلى المقتدرين، فتنكمش أيديهم ويبذل ماء وجهه فى ساحة الأغنياء، فلا تتحرك عواطفهم نحوه، لأن سوء معاملته قد مزق ما بينه وبين الناس من أواصر، وأقام بينه وبين الرحماء سداً منيعا .

هكذا يرسم الرسول الحياة الصحيحة، ليستطيع المرء أن يسلك حياته وهو أوفر ما يكون راحة ، وأكثر ما يكون نجاحا .

---

* رواه البخارى .

اعمل عمل امرئ يظن أن لن يموت أبداً *

المال لازم لكل أمة فى تأسيس مجدها — والرسول الأعظم يحث المسلم على العمل المتواصل كأنه يعيش أبداً ، ليساهم فى تشييد مجد أمته ، ما دام على ما يرضى الحق تبارك وتعالى، ولكن هناك أقواما جهلة متنطعين لم يتذوقوا شيئا من سمو الاسلام الحنيف ، يريدون من الدنيا أن تكون دار عبادة لا عمل فيها ولا سعى ، ويريدون من المسلمين أن يكونوا حرفاء المساجد دائما — لا يحرصون إلا على القوت الكفاف ، لأن الدنيا حلالها حساب وحرامها عقاب، ولأن أمام المسلم عقبة كئوداً لا يجوزها إلا المخففون.

وبهذا يعطلون بسهولة أركان الاسلام ، فمن أين للمسلمين أن يخرجوا زكاة أموالهم ويحجوا إذا كانت أرزاقهم كفافاً ؟ ومن أين لهم أن يعدوا للعدو ما استطاعوا من قوة ومن رباط الخيل، يرهبون به عدو الله وعدوهم إذا كانوا خصوم المال وأعداؤه..؟

إن هؤلاء المتنطعين أساءوا إلى الاسلام بعقليتهم الحمقاء. فأين تثبت الأمة المحمدية وجودها ، وأنها خير أمة أخرجت للناس ، إذا اعتبرت الدنيا قذى فى الأعين ، وجيفة قذرة ... طلابها كلاب .. ؟!

---

* رواه الديلمى.

إن شر الناس من تركه الناس اتقاء فحشه *

هناك إنسان يفيض حمقاً وسفها ، يعيش فى عزلة عن الناس على رغم منه، لأنه رزق أخلاقا سيئة، وطبعا جافا ، وذوقا بغيضا حتى صار كالمرض المعدى يفر الناس منه فرارهم من الأسد .

لقد ألف الناس أن يألفوا اللين الطباع ، الطيب الأخلاق ، النبيل الشمائل ، السليم الذوق، الموثوق فى ذمته وضميره ؛ كما ألفوا أن ينفروا من السيء الخلق، الفاحش المتفحش والبذيء..

والرسول يصف الفاحش الذى يتجنبه المجتمع، وينفر منه اتقاء فحشه بأنه شر الناس منزلة حتى يعلم حقيقته ، فيكافح غروره ، ويقضى على داء الكبر والشر المستقر فى أعماق نفسه؛ ويعود إلى المجتمع الذى لا يستغنى عنه إلا جاهل غبي ، أو أحمق عيي . !

إن أمثال هـذا الذى قصده حديث الرسول كثيرون فى كل مجتمع ، يملأ الغرور أنف الواحد منهم ، وكأن لسانه صيغ فى قالب من البذاءة، ونفسه صهرت فى بوتقة من الفحش، احتقار الناس طبيعة متأصلة فيه ، والاستخفاف بهم لذة لديه لاتدانيها لذة ..!

فلو أن هذا السفيه وأمثاله عرفوا حقيقة أنفسهم ، أو أن المجتمع حملهم على أن يعرفوا حقيقة أنفسهم ، لطهرت الأرض من رجسهم، واستراحت الدنيا من شرهم .

---

* رواه البخارى .

اذا وسد الامر الى غير أهله

فانتظر الســـاعة *

إن إسناد الأمر إلى غير أهله جريمة يصلى شقاءها الوطن بأسره ، فاذا ما أسند الأمر إلى من لا يستطيع القيام بمهمته ، ومن ليست له الضمانات العلمية والتجاربية التى تؤهله للقيام بهذا الأمر ، اضطربت أحوال الدولة ، وتعرقلت نهضتها ، وتوقف موكب رقيها ... وثبطت همم الجديرين باسناد مهام الأمور إليهم ، وإلقاء عظام الشؤون على عواتقهم .

هذه لفتة كريمة من أستاذ الحيـــاة للمسئولين عن الأمم والدول ، تحمل فى معناها نذيراً يجر وراءه مالا تحمد عقباه .

إن الرسول صلى الله عليه وسلم يوضح فى هذه اللفتة الكريمة أن الأمر إذا أسند إلى غير أهله من الكسالى الذين تدفع بهم المحسوبية والزلفى إلى مقدمة الصفوف، وترك أهله والجديرون به، لأنهم لا يتمتعون بمحسوبية، وتربأ بهم نفوسهم عن الزلفى ـ إذا حدث هذا فى أمة ، أصاب حيـاتها الاضطراب ، ولحق شؤونها البلبلة ، وانهـارت دعائم الاستقرار بين أرجائها ، وانكمشت فى زوايا الاهمال والمهانة والنسيان . . !

---

* رواه البخارى .

الرجل على دين خليله

فلينظر أحدكم من يخالل *

المرء قليل بنفسه ، كثير باخوانه ، ولا يمكن لانسان أن يقطع مراحل حياته وحيداً فريداً ، إلا إذا رغب فى حياة لا وجود له فيها ، ولا كيان له فوق أرضها وتحت سمائها .

إذن، فالانسان فى مسيس الحاجة إلى صديق يأنس فى صداقته، ويطمئن إلى أخلاقه، ويعتز برجولته وشهامته، يلجأ إليه فى شدته فيجد فيه المروءة ، فيفزع إليه فى ضيقه فيستجيب له .

وما دام الانسان لا غنى له فى حياته عن الصديق ، فليختر الصديق الجدير بالاخوة ، الذى يطمئن إليه فى صداقته ، ويثق به فى مودته وعشرته . وصديقك عنوانك، فاذا اخترت الصديق المرضى الأخلاق ، دللت على طيب عنصرك ، وسمو خلقك، وعلو نفسك ، وإذا اخترت نقيضه كنت نقيض ذلك .

إن من الأصدقاء مزيفين — هم كالثعالب — إذا كنت فى رخاء حاطوك فى صباحك ومسائك، وهللوا حولك فى غدوك ورواحك ، وإذا كنت فى شدتك تفرقوا عنك ، وتناسوا وجودك ؛ وإن من الأصدقاء — أنذالا — إذا احتاجوا إليك هرعوا نحوك، وإذا لم يحتاجوا إليك اعتزلوا مجالسك ، فهم والنبل على طرفى نقيض .

فاياك وهذين الصنفين من الأصدقاء فانهما أجدر بالحذر . . .

---

* رواه الترمذي

انظروا الى من هو أسفل منكم

ولا تنظروا إلى من هو فوقكم

فانه أجدر ألا تزدروا نعمة الله عليكم *

مما لا ريب فيه أن الانسان يتطلع دائما إلى من هو أعلى منه، فى الثروة أو الجاه أو الصحة أو السعادة أو غير ذلك، ولا شك فى أن هذا التطلع يتعبه ويضنيه، ويزعج حياته، ويقلق باله، ويمرر عيشته، ويجعل من سعادته شقاء، ومن نعيمه جحيما، ومن سروره نكدا، ومن راحته تعبا، ومن استقراره قلقا . .

وهذا هو السر فى أمر الرسول المسلم بالنظر إلى من هو أقل منه، ونهيه عن النظر إلى من هو أعلى منه حتى يعيش مستريحاً فى حياته، لا يحتقر ما فيه من نعمة وهناء وسعادة، قانعاً بما أوتى من رزق، راضياً بما قسم الله، من حياة، شاكراً لأنعمه — وهذا نوع من التربية الرفيعة التى لا تصلح حياة الفرد بغيره، ولا تستقر بدونه .

أما إذا كان نظر المسلم إلى من هو فوقه بقصد الطموح والمنافسة، فلا مانع من هذا، لأن النظر المنهى عنه إنما هو نظر العاجز الذى لا حيلة له فى السعى والطموح .

---

* رواه مسلم

أحبب حبيبك هونا ما

عسى أن يكون بغيضك يوماً ما — وأبغض بغيضك هوناً ما ،
عسى أن يكون حبيبك يوماً ما *

الرسول الأعظم — يعلمنا أن الحياة تتطلب دائما التريث في كل حالة ، وتمج الاندفاع في تيار قد لا يسلم المدفع فيه من شره ، وما أحوج المرء إلى التريث وعدم الاندفاع في مصادقته ومعاداته ، ومصاحبته ، ومفارقته ، وقربه وبعده . .

فاذا صادقت فليس من الحكمة أن تبالغ في مصادقتك وتجود بمكنون سرك لصديقك ، فأنت لاتضمن دوام مودته ، ولا بقاء صداقته ، فلا يستبعد أن يصير عدواً لك في يوم ما ؛ فتكون عندئذ قد أسلمت له نفسك ، وأمكنته من شخصك ، ومهدت له طريقاً للنيل منك ، والسطو عليك.

كذلك إذا عاديت فليس من الحكمة أيضاً أن تبالغ في عداوتك حتى تقطع كل حبال مودتك ، وتلقي بآخر سهم للتشفي منه ، فلا يبعد أن تنقلب العداوة صداقة أو البغضاء محبة ، والقطيعة صلة ، فتكون قد أحرجت نفسك وألبستها ثوب الندم والملامة . .

---

* رواه الترمذي .

من استطاع منكم ان ينفع أخاه

فلينفعه *

لا يقوى أى انسان فى الحياة على أن يعيش وحده ، ولذلك كان لا بد للناس من تعاون فى هذه الحياة ، ولا يجدى هـذا التعاون ، بل وان يكون له أدنى وجود ، إلا إذا تلاشت الأثرة والأنانية تلاشيا نهائيا .

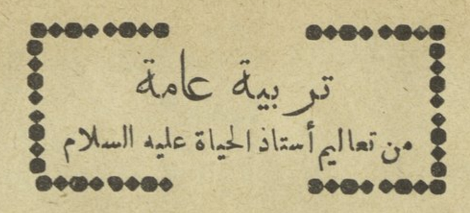
وفى هذا الحديث الشريف لون رفيع من التربية ، حيث يدفع الرسول كل انسان إلى تخليص نفسه من الأنانية ، والعمل على نفع أى انسان آخر يستطيع نفعه ، وبذلك يمكن للتعاون أن يسلك طريقه فى المجتمع الانسانى ، ويتوفر الحب فى قلوب أفراده على السواء .

كل منا يستطيع أن يفكر من أجل غيره — ولا خير فيه إذا عاش لنفسه فقط — كما يستطيع أن يقدم نفعا — قل أو كثر — لمن هم فى حاجة الى النفع ، وحتى كان هذا ، أصبح المجتمع مجتمعا متساندا متعاونا ، يقطع مراحل الحياة فى ظل الأمن والاستقرار .

---

* رواه مسلم

هذه هي الحياة



تربية عامة

من تعاليم أستاذ الحياة عليه السلام

* ابدأ بمن تعول .
* قيدها وتوكل .
* تهادوا وتحابوا .
* ما عال من اقتصد .
* الكلمة الطيبة صدقة .
* خالقوا الناس بأخلاقهم .
* انما الطاعة فى المعروف .
* الصبر عند الصدمة الأولى .
* احترسوا من الناس بسوء الظن .
* ان الله يحب العبد التقى الغنى الخفى .
* استأنسوا بالوحدة عن الجلساء السوء .
* شر ما فى الرجل شح هالع وجبن خالع .
* إذا وسد الأمر إلى غير أهله فانتظر الساعة .
* ليس الغنى عن كثرة العرض وانما الغنى غنى النفس .

* ما كرهت أن يراه الناس منك ،
فلا تفعله بنفسك إذا خلوت .

* ليس الشديد بالصرعة ، وإنما الشديد
الذى يملك نفسه عند الغضب .

* البر حسن الخلق ، والاثم ما حاك فى
صدرك وكرهت أن يطلع عليه الناس .

* الاقتصاد نصف المعيشة ، والتودد إلى الناس
نصف العقل ، وحسن السؤال نصف العلم .

* ليس بخيركم من ترك دنياه لآخرته ، ولا آخرته
لدنياه ، حتى يصيب منهما جميعاً ، فان الدنيا بلاغ
إلى الآخرة ، ولا تكونوا كَلًّا على الناس .

الرسالة القادمة

اركان الدعوة الاسلامية

مطبعة منبر الشرق بالقاهرة

قريبا :

الاسلام المصفى

ثورة على الجمود الفكرى
والهوس الدينى